الصحوة الشيعية: الصراعات داخل الإسلام ومستقبل العالم

فالي نصر، 2006

المقدمة

كنت في بدايات عام 2003 وقُريب الحرب على العراق أقوم بزيارة صديق قديم لي في باكستان. تحدثنا عن التغيرات التي بدأت تعصف بالشرق الأوسط. بالنسبة لصديقي، يوجد هناك تعاطٍ ساخر تجاه كل المحادثات الشيعية السنية الذي بدأ يملأ الجو، ما يؤدي بوضوح إلى إحداث إرباك في الغرب الذي كان يعتقد بأن القضية الأهم في العراق والشرق الأوسط هي القتال من أجل الديمقراطية. ما جعله يستذكر محادثة جرت بينه وبين أحد الموظفين الأمريكيين الرسميين ذو المنصبٍ الرفيع.

كان صديقي موظف أعلى في الحكومة الباكستانية في الثمانينات وصلة الوصل مع البنتاغون لإدارة الحرب في باكستان ضد السوفيات. راح يستذكر تلك الأيام عندما كانت إيران وحزب الله يشنون حرباً إرهابية نشطة ضد الولايات المتحدة، وكان المجاهدون الأفغان "الجماعة الجيدة". نظيره الأمريكي، موظف أعلى في البنتاغون، غالباً ما كان يضايقه بقوله بأن الشيعة "عطشى للدماء، وهم الوحوش أكلة الأطفال". فكان يسرع إلى الرد قائلاً بأنه يوجد سوء فهم لدى الأمريكيين، و يقول لزميله من الولايات المتحدة، "انتظر، وسوف ترى". "السنة هم من سيشكل المشكلة الحقيقية، هم المتعسفون، والشيعة هم الضحية". مرّ الوقت، وتقاعد صديقي من عمله في الحكومة. وفي أحد الأمسيات من خريف 2001، وبعد أحداث 11 تشرين الثاني، كان نائماً وإذا بصوت مدوٍ لصفارات إنذار يقلق نومه بينما قافلة من الجيبات السوداء توقفت أمام منزله في إسلام آباد. صديقه الأمريكي القديم والذي هو اليوم رجلٌ مهم في واشنطن، عاد إلى باكستان ليدير حرباً أخرى في أفغانستان، وقرر أن يعرّج عليه.

سأل الأمريكي صديقي، "هل تذكر كل نقاشاتنا في السنوات الماضية حول الشيعة والسنة؟ أريدك أن تشرح لي ماذا عنيت عندما قلت بأن السنة سيكونون هم المشكلة الحقيقية." فقام صديقي بشرح الفرق بين المذهبين، ومن الذي سيطر على من، وأين، وكيف، وماذا يعني كل ذلك اليوم.

ما قاله صديقي لزائره الأمريكي أصبح يتمتع بأهمية أكبر بعدما أضافت الحرب على العراق درجة إضافية من التعقيد على المشاكل الصعبة التي تواجهها الولايات المتحدة منذ حرب 11/9. كما يوجد الآن تداعيات الصراع السني–الشيعي الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار بينما كان يتطلع القادة الأمريكيون إلى طرق لاحتواء التهديد الإسلامي المتطرف، مواجهة التحديات التي تتسبب بها إيران وحزب الله في لبنان، والقيام بإصلاح الوضع في الشرق الأوسط.

كنت في رحلة لإجراء بحث في باكستان في نيسان 2003 عندما تجمع مليونان من الشيعة في مدينة كربلاء العراقية لذكرى الأربعين، إحياء اليوم الأربعين من استشهاد الإمام الحسين، شخصية مقدسة عند الشيعة، في كربلاء سنة 680 هجري حيث كان قد مُنع إحياء مثل هذه الذكرى أثناء حكم صدام لسنوات.الشيء الأخير الذي كان يريده صدام هو أن يتجمع عدد كبير من الشيعة في مكان واحد، في حالة عالية من الوجد الديني، يبجلون قدوتهم الإيمانية الذي كان ابن بنت الرسول والذي ــ كما يؤمن الشيعة ــ مات وهو يقارع الظلم للحظة الأخيرة.

في "اليوم الأربعين" هذا تحديداً والذي كان مباشرةً بعد اليوم الذي قام به البحريون الأمريكيون والعراقيون المبتهجون بالنصر بإسقاط تمثال صدام في مربع الفردوس في بغداد، حدث أنني كنت على حدود لاهور، أقوم بزيارة مركز القيادة لجماعة سياسية سنية متطرفة معروفة بالجماعة الإسلامية (حزب إسلامي). كان التلفاز الموجود في المكتب مضبوط على قناة الـ CNN، حيث كان الجميع يتابعون الأخبار من العراق. تحولت التغطية إلى مشاهد لشباب شيعة يقفون بشكل متراص في ظل القبة الذهبية لمقام الإمام الحسين في كربلاء. الجميع يلبس قمصان سوداء ولفحات خضراء (اللون العالمي للإسلام) تلف رؤوسهم. يرددون مرثيات باللغة العربية لإمامهم المعشوق بينما كانوا يلطمون صدورهم بحركة متناغمة تعبر عن تفجعهم وحزنهم وأساهم. كانت الصورة ساحرة، تجمع ما بين البهجة بالنصر والتحدي. كان الشيعة في الشوارع، يحملون إيمانهم وهويتهم عالياً ليراها الجميع. كنا نحدق في الشاشة. مضيفي السنّة كانوا مرعوبين من المشهد الذي يرونه. سحابة سوداء غيمت على الغرفة.

لم تر العراق مثل هذه المشاهد لأكثر من جيل، والآن كان العالم كله يشهد الصحوة الشيعية. كان معلق الـ CNN يتبجح فرحاً بأن العراق أصبح حراً أخيراً ــ كانوا يقومون بطقوس لم يكن ليفهمها المشاهد الغربي ولكن كانت ممنوعة على الشيعة لعشرات السنين.

ما رآه الأمريكيون على أنه حرية العراقيين، رآه مضيفيي على أنه إظهار واضح لطقوس راديكالية على تناقضٍ تام مع ما لدى الأصوليين السنّة. أصبح العراقيون أحراراً ــ أحراراً ليكونوا شيعة، أحراراً لمواجهة السيطرة السنية والمفهوم السني للمسلم الحقيقي، وأحراراً لاستعادة معتقدهم الذي يعود إلى آلاف السنين. "هذه الأعمال غير صحيحة"، قال أحد مضيفيي. العراقيون ــ وقصد بذلك الشيعة ــ "لا يعلمون التطبيق الصحيح للإسلام". وأضاف أن مناظرات الشيعة والسنة حول حقيقة الرسالة الإسلامية وكيفية تطبيقها سوف تستمر ليس فقط سلمياً ورمزياً وإنما باستخدام القنابل والرصاص. لم يكن يتحدث عن العراق وإنما عن باكستان.

قال مضيفيي في الجماعة بنحوٍ يائس بأن الوضع في العراق سوف يفتح شرخاً مذهبياً في باكستان وأن النزاعات التي من المؤكد أنها ستندلع في العراق سوف يكون مسرحها الجوامع وشوارع كاراتشي ولاهور، أيضاً. لاحقاً من تلك السنة، انفجرت عبوة أثناء احتفال الشيعة بذكرى عاشوراء (الذكرى الأساسية لاستشهاد الحسين) قتلت العديد من الناس، في بغداد، النجف، وفي كويتا في باكستان. وهنا كان قد بدأ نسج الصراع المذهبي في البلدين بالخيط ذاته. هذا الخيط قد امتد منذ زمن إلى نسيج الحياة السياسية والاجتماعية على نطاق أوسع في الشرق الأوسط ــ أحياناً كان غير مرئي داخل السياسات الإقليمية التي يمكن أن تكون أكثر تعقيداً وتلوناً من سجادة أصفهانية، وأحياناً أخرى كان واضحاً بوضوح الخط الممتد في وسط الطريق العام.

فالصراع السني-الشيعي هو في نفس الوقت صراع على روح الإسلام ــ حربٌ ضخمة حول المعتقدات والمفاهيم المتضاربة للتاريخ المقدس ــ وظهور لحروب من نوع الحروب القبلية كالحروب العرقية وحرب الهوية، في الوقت الذي تعود فيه هذه الحروب إلى القدم، إلا أن المفاجئ أنها لا زالت حية، وسئمتها البشرية. يجتمع الإيمان والهوية في هذا الصراع، وقوتهم مجتمعة تساهم في شرح السبب الذي جعل هذا الصراع يطول كل هذه المدة ولا زال يتمتع بهذه الأهمية، وبغض النظر عن تلك الفترات التي كان يوجد فيها تعايشاً سلمياً. هذا ليس بنزاع ديني يعود إلى العهود القديمة، أو قطعة متحجرة تعود للسنوات الأولى لظهور الإسلام، وإنما صراع هويات معاصر. الاختلافات العقائدية والتاريخية تزيد من تؤججه، ولكن ما يساهم في ذلك أيضاً: الاهتمامات اليوم بالسيطرة، الاستعباد، الحرية، والمساواة، أضف إلى ذلك الصراعات الإقليمية والمؤامرات الخارجية. إنه الصراع الجامع للتناقض، فهو الصراع القديم الحديث.

على مدى الربع قرن الممتد ما بين الثورة الإيرانية عام 1979 و أحداث تشرين الثاني 2001، كانت الولايات المتحدة غالباً ما تنظر وإلى حدٍ بعيد من خلال عيون النخبة السنية المتسلطة في إسلام آباد، عمان، القاهرة، والرياض، الذين كانوا يمثلون حلفاء أمريكا المحليين. حتى المجلدات العلمية الغربية التي تناولت الإسلام، قامت بتهميش الشيعة. طالما أن هناك تحولات تحدث في الشرق الأوسط، والهيمنة السنية تواجه تحديات بشكلٍ مستمر، فإن تصور الولايات المتحدة حول المنطقة ينبغي أن يتغير أيضاً. في الإجابة على المعارضة الأوروبية للحرب على العراق، قام وزير الدفاع، دونالد رامسفيلد، بالتمييز بين "أوروبا القديمة" التي عارضت الحرب، و"أوروبا الحديثة" التي كانت أكثر احتمالاً لتأييدها. قامت الحرب أيضاً برسم خط فصل (وإن كان بطريقة مختلفة) ما بين الشرق الأوسط "القديم" و "الجديد". الشرق الأوسط القديم عاش تحت سيطرة العرب

وتطلع إلى بغداد، القاهرة، ودمشق ـــ المقرات القديمة للخلفاء السنة ـــ على أنها "مناطق السيطرة". مشاكل المنطقة، طموحاتها، هويتها، وصورتها، كانت بشكل أساسي، إن لم نقل على وجه الحصر، هي تلك التي للعرب. إن القيم السياسية التي كانت سائدة في الشرق الأوسط القديم هي القومية العربية التي يعود عمرها إلى عشرات السنين.

الشرق الأوسط، الذي يلفظ حالياً أنفاسه الأخيرة بقلق، كان في جوهره مكاناً لتوطيد، لأجل، وحول نشوء السيطرة السنية. الهوية الشيعية، بدورها، هي التي تصبغ الشرق الأوسط الجديد الذي يشهد ولادة متعسرة ـــ حيث يصاحب انفجار السيارات وكذلك التظاهرات السلمية والانتخابات آلام ولادته. وتؤثر تلك الهوية بروابطها الثقافية والإيمانية وحلفائها السياسيين وعلاقاتها التجارية على الانقسام بين العرب وغير العرب. خذ بعين الاعتبار أن العراق، التي هي إلى جانب مصر وسوريا، من بين الدول العربية الثلاثة الأكثر أهمية والتي دخلت في تنافس جدي على قيادة العالم العربي عندما كانت القومية العربية في أوجها، انتخبت شخصاً كردياً كرئيسها الأول بعد الحرب، وهي تقوم بتوطيد العلاقات مع إيران أكثر منها مع جيرانها. حتى إن الشيعة والأغلبية الكردية في العراق اختارت أن تتجاوز القسَم التقليدي بالوفاء للهوية العربية في المحاولة الأولى للدولة لوضع دستور جديد في صيف 2005 يعلن بأن العراق لم تعد "جمهورية عربية" وإنما "جمهورية فدرالية."

الرسميون المنتخبون في الحكومة العراقية التي تشكلت بعد الحرب والتي لا زال عودها طرياً، هم أول قادة شيعة يكون للولايات المتحدة علاقة ذات أهمية معهم منذ الثورة الإيرانية. عندما كان يتحدث القادة الأمريكيون عن تغيير سياسة المنطقة إلى الأفضل بعد الحرب العراقية كانوا في الحقيقة يتحدثون عن جعل الشرق الأوسط القديم المسيطر عليه من قبل السنة ديمقراطياً. لم يولوا أهمية للشرق الأوسط الجديد الذي كان في طور الظهور والذي كان عليه أن يستجمع قوته. لن يتخذ الشرق الأوسط الهوية العربية أو أي شكل من أشكال الدولة الوطنية. في النهاية، إن سمة المنطقة سوف تتحدد وفق الاختبار القاسي للصحوة الشيعية ورد الفعل السني عليها.

إن الشرق الأوسط اليوم أكثر عرضةً لعدم الاستقرار والتطرف من أي وقت مضى منذ أن قامت الثورة الإسلامية في إيران بالإطاحة بحليف أمريكا في تلك البلد وأتت بالشيعة الراديكاليين إلى السلطة. دعوة الولايات المتحدة للديمقراطية في المنطقة أزعجت أصدقاءها كما فشلت في استرضاء أعداءها. فالصراع في العراق أتى بالتحالف الديني الشيعي إلى السلطة مولداً تمرداً إسلامياً قومياً يعزز التطرف الجهادي.

إذاً إن الصراع السني الشيعي أضحى يجذب أنظار العالم، ولكن بالنسبة للعرب، الإيرانيين، الأفغان والباكستانيين الذين يعيشون في المنطقة، يتحدث عن معاناة قديمة كانت تنفجر من وقتٍ لآخر مشكّلةً التاريخ، العقيدة، القانون والسياسة الإسلامية. فقد كانت أهمية هذا الصراع في تشكيل الشرق الأوسط أبعد مما يدركه الكثيرون، كما أصبح داخلاً بشكلٍ عميق في التمييز العنصري الشعبي، مثلما أن أنماط العامة من الشيعة ونظرتهم الخاطئة للإسلام قد حددت كيف نظر الكثير من السنة إلى أنسابهم. في لبنان، على سبيل المثال، من المعلومات المتداولة شعبياً أنه يوجد للشيعة ذنب، يتناسلون بسرعة كبيرة، مغالون في التعبير عن تدينهم، وبالأخذ بالاعتبار نظرة لبنان لنفسه كبلد أنيق، فإنه يُسخر منهم على أنهم طبقة شعبية مبتذلة. وبغض النظر عن الشعبية السياسية لحزب الله، فإن الشيعة يتعرضون للتمييز العنصري، منبوذون من جهة أنهم قرويون، يفتقدون للتمدن وغير ملائمين لمطالبتهم بتمثيل لبنان. في المملكة العربية السعودية، يُقال بأن الشيعة يبصقون في طعامهم، افتراء لا شك بأنه يهدف إلى ثني الشيعة والسنة عن الاجتماع معاً على الطعام ـــ وأن التسليم باليد على الشيعي منجس ويستلزم الوضوء. في باكستان، يُلقب الشيعة بأشياء مهينة مثل "الذباب".

الغرب أيضاً كانت له حروبه الدينية: حرب الثلاثين سنة، الصراع في إيرلندا الشمالية، والأشكال المختلفة للتمييز العنصري الذي مارسه الغربيون ضد بعضهم البعض حول الاختلافات الدينية. هذه الصراعات والمناوشات لم تكن دائماً حول المبادئ العقائدية وإنما كانت غالباً ما تعكس التنافس على السلطة بين الجماعات المتناحرة والتي تنتمي بجذورها إلى هويات دينية مختلفة. الدين ليس فقط عن الله والخلاص؛ وإنما يقرر الحدود للجماعات. تلعب القراءات المختلفة للتاريخ، العقائد، والتشريعات الدينية، نفس الدور الذي تلعبه اللغة أو العرق في تحديد ما يجعل كل هوية منفردة ومن ينتمي ولا ينتمي إليها.

نحن نعيش في عصر العولمة، ولكن الذي هو أيضاً ذات هوية سياسية. وكأن عالمنا يتمدد ويتقلص في نفس الوقت. الشعوب المختلفة تعتنق قيم عالمية، و للمرة الأولى تدخل الجماعات المنعزلة في مستويات من التجارة والتواصل مع العالم الخارجي بصورة لم يسبق لها مثيل. ولكن في نفس الوقت إن الارتباطات البدائية أو القريبة من البدائية بالعرق، اللغة، القومية، تعزز من شعورهم بوجودهم. هذه هي حقيقة وقتنا هذا التي لا يستطيع العالم الإسلامي أن يهرب منها. إن الصراع على الهوية سوف يبقى في صعودٍ وهبوط إلى جانب تلك النزاعات التي تشد أنظار العالم ــ ما بين الأصولية والمدنية، أو الفاشية والديمقراطية ــ كعوامل ترسم مستقبل المسلمين. بينما تقوم الحرب، الديمقراطية، والعولمة بدفع الشرق الأوسط للانفتاح على عدد من التغيرات التي طالما قاومها ــ النزاعات كالانشقاق السني الشيعي سوف تصبح أكثر حدة وتكرراً. من قبل أن يصل الشرق الأوسط إلى حالة من الديمقراطية والازدهار، عليه أن يحل هذه النزاعات ــ تلك التي بين المجموعات العرقية كالأكراد، الأتراك، العرب والفرس والأهم من ذلك النزاع الأوسع الذي هو بين السنة والشيعة. مثلما أن حل النزاعات الدينية حددت مرحلة انتقال أوروبا إلى المدنية، إذاً على الشرق الأوسط أن يحقق السلام المذهبي من قبل أن يستطيع البدء بتفعيل طاقاته.

في السنوات المقبلة إن السنة والشيعة سوف يتنافسون على السلطة، أولاً في العراق ولكن في النهاية على امتداد المنطقة كلها. الدول ما بعد العراق (حتى بعد تحقيق الإصلاح)، سوف تحتاج لأن تتأقلم مع المناوشات المتزايدة حدة بين الشيعة والسنة. إن الصراع السني-الشيعي سوف يلعب دوراً هاماً في تشكيل الشرق الأوسط ككل وكذا علاقاته مع العالم الخارجي. الصراع المذهبي سوف يجعل من السنة المتطرفين أكثر تطرفاً ومن المحتمل أن يعيد تأجيج الحماس الثوري بين الشيعة. في بعض الأوقات سوف يكون الصراع دامياً بينما يقوي المتطرفين، يزيد من أعدادهم، يعمم قضاياهم، ويرفع من أصواتهم في السياسة، وبالتالي يعقد الجهد الأكبر لاحتواء الراديكالية الإسلامية. حتى أولئك الذين سيحاولون إطفاء نيران الصراع المذهبي لن يقوموا بذلك دائماً تحت عنوان الاعتدال. وإنما سوف يسعون لبناء جبهة مشتركة بين الشيعة والسنة ضمن صراع أكبر ضد الولايات المتحدة وإسرائيل.

ليست الجماعات السنية والشيعية بجماعات كبيرة، وهذا الكتاب لا ينطلق من هذه المقدمة. فإن أتباع كل مذهب منقسمون على أساس اللغة، العرق، المكان الجغرافي، والطبقة. كما يوجد اختلافات ضمن المجموعة الواحدة على السياسة، العقيدة، والتشريعات الدينية، أضف إلى ذلك التفريق بين التقي، والأقل تقوى، أو حتى المادي. العالم الشيعي والعالم السني يتداخلان ويمتزجان جغرافياً. كما أنهما يمتدان على مناطق ذات ثقافات متنوعة وإلى ما لا يُعد ولا يُحصى من المجموعات العرقية الأصغر حجماً. يوجد مناطق عربية، فارسية، جنوب آسيوية، إذا ما أردنا ذكر البعض، ومن ثم داخل هذه المناطق يوجد تقسيم بحسب اللغة والعرق. في العراق، عل سبيل المثال، يوجد فروقات شاسعة بين العرب، الأكراد، والتركمان الشيعة، وكذلك بين سكان المدينة، العشائر، الفلاحين، وأولئك الذين يقطنون قرب المستنقات. ولكن مهما ركزنا على التنوع في الآراء، المواقف، الاهتمامات، داخل كل جماعة، في النهاية فليس التنوع ما يحدد الصراع، وإنما الصراع هو الذي يحدد المواقف الاجتماعية المشتركة.

مثل الكثير من الشعوب التي عاشت بقلق قرب بعضها البعض ولمدة طويلة، فإن الشيعة والسنة لديهم رواياتهم في مواجهة تحديات مشتركة، الانسجام الاجتماعي، الصداقة، والتزواج.

كما يوجد علماء دين كآية الله محمد عاسف محسني في أفغانستان وكلب الصادق في الهند، الذين يدعون إلى السلام بين المذاهب.

في العراق، القبائل الأساسية مثل الجبوري، شمّار، والتميمي، تحتوي جميعها وبنسب متفاوتة على أفراد من السنة والشيعة. في الشرق الأوسط، غالباً ما كان السنة والشيعة يجتمعون حول نفس القضايا السياسية حتى أنهم كانوا يقاتلون معاً في نفس الخندق، بشكلٍ خاص ضد الاحتلال الأجنبي، كما في العراق ضد البريطانيين عام 1920، وفي لبنان ضد إسرائيل في أواخر الثمانينات. في الحقيقة، لا يوجد قضية في عصرنا الحالي جمعت بين الجانبين كما الحرب ضد إسرائيل. ولكن أي من هذا لا يجعل النزاع بين الشيعة والسنة أمر متوهم أو غير ذات أهمية. فإن المواقف السياسية والاجتماعية التي تبقي هذا النزاع مستمراً لها جذورها في الدين، التاريخ، والأحداث الأخيرة التي وقعت بين الجماعتين. فحرب العراق – إيران في الثمانينات، القمع الوحشي للثورة الشيعية من قبل صدام عام 1991، النزاع الهندي- السعودي منذ عام 1979، التحالف السعودي-

الباكستاني–الطالباني في التسعينات، والتوظيف المالي السعودي الهائل للقواعد السنية المتطرفة في الجنوب ووسط آسيا في التسعينات، كلها تعبر عن ما يشكل أساس السياسة في الشرق الأوسط والتي لا زال تأثيرها مستمراً على الأحداث، حتى لو لم يكن ذلك ظاهراً للناظر من الخارج.

الكثير من المعلقين أشاروا إلى أنه حتى في العراق حيث أن الصراع الشيعي السني هو الأكثر حدة، فإن العداوة بين الجماعتين لا تصل إلى العمق الحاصل بين البروتستانت والكاثوليك الرومان في شمال إيرلندا أو المسيحيين والمسلمين في لبنان. الكراهية أقل تعصباً، والشيعة يعزون فقرهم ومعاناتهم إلى صدام وليس إلى جيرانهم السنة. كما يوجد اختلاط وتزواج متزايد بين المذهبين. ولكن حدة الصراع المذهبي المتزايد بعمل على القضاء على هذه الروابط. كما يدلي الروانديون وسكان البلقان بحزن بأن التزواج وتاريخ من العيش المشترك ليس ضامناً لعدم الاقتتال بين الأخوة. حتى أن الاندماج العرقي في سراييفو بين المسلمين، الكرواتيين، والصربيين، بالرغم من الاندماج الثقافي والعائلي الموجود، لم يحمها من عنف حروب الإبادة في يوغوسلافيا.

في العراق، الغضب العارم ضد العمليات الانتحارية من قبل السنة المتطرفين (حيث تجدر الإشارة أن الكثير منهم ليسوا من العراقيين) قد أدى إلى عمليات انتقامية احترازية من قبل الشيعة، بما في ذلك عمليات الخطف، التعذيب، الإعدام، والقتل، بالرغم من الدعوة المستمرة من كبار القادة الشيعة بضبط النفس.

علاوةً على ذلك، ما يؤدي إلى التطهير العرقي من قبل الجانبين هو التغيير في التوزيع السكاني في البلد وقهرياً. الدورة، على سبيل المثال، التي هي معقل المعادين للتحالف في جنوب بغداد، التي يشكل السنة ثلاثة أرباع السكان فيها والربع الباقي هو من الشيعة، ولكن الشيعة بدأوا يترحون منها مؤخراً بأعدادٍ هائلة. في الرمادي، التي هي مرقد الجهاديين والبعثيين السابقين، والتي تقع في مقاطعة الأنبار السنية غير المستقرة، فإن السكان المحليين السنة غير قادرين على وقف المتمردين من دفع السكان الشيعة على المغادرة. في البصرة، إن العنف يسير في الاتجاه المعاكس، حيث أن المتطرفين الشيعة يقومون بقتل العلماء السنة، القادة وحتى الناس العاديين، محدثين بذلك نزوح سني من أوسع مدينة في جنوب العراق.

ما يجعل الصراع المذهبي مفيداً لمستقبل الشرق الأوسط هو أنه بدأ يطفو على السطح في الوقت الذي بدأ المعاداة لأمريكا، التدين المحافظ، والتطرف بالظهور. التطرف السني يغذي التعصب وحتى العنف ضد الشيعة. التشنجات الناجمة عن التنافس المذهبي تقوي من التطرف السني وتشرع العنف، والتي ـــ على الأقل في الأماكن التي يستطيع فيها الشيعة رد القتال ـــ تؤدي إلى حلقة مغلقة من التحريض والانتقام متبوعة بعمليات مماثلة.

إن السياسة المذهبية تلقي بظلالها أيضاً في وقت من المناظرات الحادة وعلى نطاق واسع، لم يُشهد مثيله من قبل، حول مستقبل الديمقراطية في المنطقة. هذه المناظرات لا تتناول فقط الحقوق الفردية، إصلاح الحكومات غير التمثيلية، ودور القانون، وإنما أيضاً السلطة النسبية للشيعة والسنة في تحديد وإدارة الحكومات وثروات البلاد. فإذا ما أرادات الولايات المتحدة أن تجلب الاستقرار إلى علاقاتها في الشرق الأوسط، عليها أن تقوم باستثمار الديمقراطية، ولكن يمكن لمثل هذا الاستثمار أن يؤتي ثماره فقط إذا ما وسعت وعمّقت من روابطها في المنطقة وأن لا تقتصر تلك الروابط على عصبة صغيرة من الحكام المستبدين بل أن تجتذب شريحة أوسع من سكان المنطقة. ما يعني إقامة روابط أوسع وأعمق مع الشيعة، درس يسهل تعلّمه بعد سقوط طالبان في أفغانستان. بناء الديمقراطية في تلك البلد لا يمكن أن يحصل من دون إشراك الشيعة في العملية السياسية. إن الشيعة، الذين يشكلون خمس السكان والذي كانوا مهمشين عادةً من قبل السنة البشتون الحاكمين، هم أوائل المستفيدين من الديمقراطية. فسقوط طالبان لم يحررهم فقط من ثقل الاستبداد الديني، وإنما التغيرات التي أعقبت الحرب جعلت لهم كلمة حول مستقبل أفغانستان، حيث تم للمرة الأولى الاعتراف بحقوقهم ووجودهم في الدستور الجديد للدولة.

إن آلام المذهبية في الشرق الأوسط هي غير منفصلة عن المشاكل الأمنية، الاقتصادية والسياسية التي تعصف بالمنطقة. فإن الدكتاتورية أخفقت في بناء أنظمة سياسية شاملة تسمح المشاركة في السلطة وتعطي مكاناً للجميع ليجلسوا إلى الطاولة. إن الركود الاقتصادي وسوء الإدارة جعل الأمور تسير نحو الأسوء. إن الصراع السني الشيعي المنبعث يتغذى من الاضطرابات الكامنة في قلب الحياة الاقتصادية والسياسية للشرق الأوسط

والتي يفسدها عدم القدرة أو عدم الرغبة في التفاوض على السلطة بشكل سلمي ومن خلال القنوات المعتادة. عندما يأتي التغيير، يكون عـــادةً مفاجئ وعنيف، إيجاد ما يسميه المهندسون تحول "جذاب" في النظام، ما يقابل "المفاجئ والعنيف"، هو ما يصعب حدوثه في الشرق الأوسط.

يمكن للتاريخ والعقيدة أن تكوّن الهويات للمجموعات المتنافسة؛ ولكن ما يشكل العمود الفقري لهذا الصراع هو الصراع على السلطة وتوزيـــع الثروة على الجماعات المذهبية أكثر منه صراعاً على الأفكار الدينية.

سوف يتمتع الشرق الأوسط بالأمن والاستقرار فقط عندما يصبح هناك توازن في توزيع السلطة والثروة بين الجماعات والطوائف المختلفة وأن يحوي النظام السياسي الجميع ويعتمد طرق سلمية في حل الخلافات. عندما تصل الصراعات الفاعلة الآن إلى حد الإنهاك، فإن غالبيـــة الشـــيعة والسنة سوف يستقرون على نظام سياسي يضمن لكليهما المشاركة ـــ لا يسيطر عليه الواحد أو الآخر، عقائدياً أو سياسياً ـــ والذي يعكـــس الطموحات السياسية، الاجتماعية، والاقتصادية للجميع.

هذا الكتاب ليس حول الحرب في العراق وإنما حول الصراعات التي أنتجتها الحرب وتداعياتها وكيف أن هذه الصراعات سوف تؤثر في تشكيل المستقبل. هدفي هو أن أقوم بتوضيح لماذا يوجد هناك صراع سني–شيعي، ولماذا أصبح يتمتع بهذه الأهمية مؤخراً، وماذا سيعني لكلٍ من الشـــرق الأوسط وعلاقات العالم الإسلامي مع الغرب. يوجد هنا الكثير حول الإسلام والتاريخ الإسلامي ويوجد أكثر حول ما يعنيه الإسلام لمعتنقيـــه. وإنه من غير الممكن الكتابة حول هذه المسائل من دون الكتابة حول موضوع أصبح يتمتع بأهمية فائقة لدى الغرب في العشر سنوات الأخـــيرة: روابط الإسلام المعقدة والتي على ما يبدو لا يمكن فصلها عن السياسة.

من المنظار الغربي، السياسة الإسلامية تتحدد على أساس القيم الإسلامية. يمكن للسياسة أن تبحث عن الحقيقة في النصوص الدينية، ولكن سوف تفعل ذلك دوماً انطلاقاً من خلفية ليست دينية مئة في المئة. فالناس يقرأون، يفهمون، ويفسرون مصادرهم للمعاني المقدسة انطلاقاً من آمـــالهم ومخاوفهم التي تشكل حياتهم اليومية. لذا فإنه من غير الممكن الحديث عن حقيقة إسلامية واحدة، أو حتى عن حقيقة واحدة شيعية أو حقيقـــة واحدة سنية. التقوى والسياسة بالنسبة للشيعة والسنة على السواء تتشكل وفق مقتضيات الحياة في المجتمعات المختلفة باختلاف مجتمعات الهند، إيران، والمملكة العربية السعودية. فرغم الاختلاف الموجود بينها، إلا أن حرب العراق غيرتهم جميعاً.